محاضرة:

نظرية التعبير

إعداد الأستاذ: طارق بوحالة

1-السياق التاريخي والمعرفي لنظرية التعبير:

يرجع شيوع أهم أفكار نظرية التعبير إلى القرن التاسع عشر ، وقد ارتبطت معرفيا بمقولات الفلسفة المثالية خاصة بعد شيوع أفكار " كانط " (1724-1800) و"هيجل" (1770-1831) "المنظرين الفلسفيين للبرجوازية والفرديّة، والمؤثرين الحقيقيّين في النقاد والأدباء الذين ظهروا في هذه الفترة...وقد فصل كانط بين المعرفة الحسيّة والمعرفة العقليّة، كما اعتبر الشعور طريق المعرفة إلى الحقيقة. أما هيجل فقد رأى أن مصدر الفنّ هو الخبرة الخاصة وماهيّة الفن مظهر حسي للحقيقة، ومهمته أرفع صور التعبير البشري عن هذه الحقيقة."[1]

لقد اهتمت هذه الأفكار الفلسفية بالفرد ونادت بحرية الإبداع، بعيدا عن سلطة "النموذج" الذي كان سائدا في النظرية الكلاسيكية (نظرية المحاكاة)، لهذا فإن عنصر الحرية من العناصر الأساسية التي دعت إليها نظرية التعبير؛ أي إن الشاعر والأديب والفنان حر في التعبير عن مشاعره دون قيود تتحكم فيه وتوجه إبداعه.

كما ارتبطت هذه النظرية بالموقف الرومانسي الذي يعد...نهجا ونظرة إلى العالم، وصور تعبير فكري وفني، وقد ارتبط هذا الموقف بالطبقة البرجوازية...[2]

والحركة الرومانسية هي حركة أدبية وفلسفية تنادي بأسبقيّة المبدع وبأنه هو مصدر الإبداع، فهو الأقدر على التعبير على مشاعره وما يحركه من انفعالات. "فالأدب تعبير عن الذات، أيّ تعبير عن العواطف والمشاعر، والأدب علم المشاعر والأحاسيس، القلب هو ضوء الحقيقة (لا العقل). أما مهمة الأدب ووظيفته فإنما تتمثل في إثارة الانفعالات والعواطف."[3]

1-شكري عزيز ماضي: في نظرية الأدب، دار الحداثة، بيروت، ط 1، 1986، ص 52.
2-ينظر عبد المنعم تليمة: مقدمة في نظرية الأدب، التنوير، بيروت، ط 1، 2013، ص 179.
3-شكري عزيز ماضي: في نظرية الأدب، ص 53.

تعد الذات المبدعة هي موطن الأدب من منظور نظريّة التعبير، هذه الذات التي تعبر عن عواطفها وانفعالاتها، وتعيد تشكيل هذه العناصر عن طريق الشعر والفن؛ فالشاعر هو مركز الحقيقة وهو القادر الوحيد على إعادة خلق العوالم من داخله دون ضاغط خارجي.

وهناك آراء تربط بين ظهور نظرية التعبير والسياق السياسي والفكري والاقتصادي من خلال ظهور طبقة برجوازية تدعو إلى الحرية الفردية، وقد تزامن ذلك مع شيوع الفكر التحرري في الاقتصاد وذلك برفع شعار "دعه يعمل، أتركه يمر"، فاتحة المجال لدعوة مشابهة في الأدب وشعارها: "دعه يعبر، إنه حرّ". ولهذا فإن الحريّة الفرديّة من أهم المقولات التي راهنت عليها نظرية التعبير، والحركة الرومانسية عموما.

2-أهم آراء نظرية التعبير:

لقد مثّل نظرية التعبير الشاعرين الإنجليزيين صامويل كولريدج (1772-1834) ووليم ووردزورث. (1770-1850)، حيث تعاملا مع الشعر انطلاقا من رصيد معرفي مشترك وهو مقولات الرومانسيّة، فهما من رواد الاتجاه الرومانسي في الشعر الأوربي والعالمي على حدّ سواء.

وهذا لا يعني أن نظرية التعبير كانت حكرا على أفكار هذين الشاعرين، حيث يمكن العثور على كثير من الأفكار في فرنسا وألمانيا. ومن أهم أفكار ومقولات نظرية التعبير هي مقولة "الخيال" التي تعد عصب هذه النظرية.

أ-مفهوم الخيال:

تركز نظرية التعبير على مفهوم أساسي وهو مفهوم "الخيّال" الذي قسمه كولريدج إلى نوعين...خيال أوليّ وخيال ثانوي، فأما الأوليّ فهو قوة حيويّة تجعل الإدراك الإنساني ممكنا، وهو تكرار في العقل المتناهي لعملية الخلق الخالدة في الأنا المطلق. أما الخيال الثانوي فهو صدى للخيال الأوليّ، غير إنه يوجد مع الإرادة الواعية. وهو يشبه الخيال الأولي في نوع الوظيفة التي يؤديها.... [4]

4-ينظر محمد مصطفى بدوي: كولوردج، دار المعارف، القاهرة، ط 2، 1988 ص 156.

يعد الخيال الأولي هو نوع من الخيال المشترك بين كل الناس، في حين أن الخيال الثانوي فهو الخيال الشعري أو الخيال الذي يختص به الشعراء.

ويمكن أن يقدم الخيال الثانوي رؤية جديدة لكثير من المظاهر التي نراها عادية مألوفة تعيش بيننا، ونعيش بينها، غير إن الشاعر كونه أقدر على خلق عوالم وصور جديدة.

ويحاول كولوريدج التميز بين الخيال والتوهم في قوله: " أما التوهم فهو على نقيض ذلك، لأن ميدانه المحدود والثابت، وهو ليس إلا ضربا من الذاكرة تحرر من قيود الزمان والمكان وامتزج وتشكل بالظاهرة التجريبية للإرادة التي نعبر عنها بلفظة الاختيار، ويشبه التوهم الذاكرة في أنه يتعين عليه أن يحصل على مادته كلها جاهزة وفق قانون تداعي المعاني." [5]

يختلف الخيال الشعري عن التوهم الذي يعد فعلا وآلية غير خلاقة للصور الشعرية.

2-مفهوم الشعر:

يعد الشعر من منظور نظرية التعبير هو تعبير صورة الحياة والعالم من حولنا انطلاقا من الذات الشاعرة أو المبدعة، لهذا فإن الشعر يعتمد على " تقديم العاطفة على العقل والقلب على الدماغ، والشعور على المنطق، والوجدان على الاتزان، والموهبة على الصنعة والإلهام على المهارة، والتلقائية على القانون الفني والعفوية على القاعدة..." [6]

يعتمد الشعر إذن، على العاطفة ويستغلها -رفقة الخيال- في خلق الصور الشعريّة من أجل التعبير عما يختلج داخل الذات من مشاعر وأحاسيس، ثم يخرجها عن طريق الإبداع الفني.

ويرى ويليام ووردزوورث في مقدمة ديوانه الموسوم بـ: القصائد الغنائية الذي نشر عام 1800 أن "الشعر هو فيض تلقائي لمشاعر قوية، يتخذ أصوله من عاطفة تستذكر في هدوء، ويتأمل الشاعر تلك العاطفة بنوع من رد الفعل حتى يتلاشى الهدوء تدريجيا وتتولد بالتدريج عاطفة صنو لتلك التي كانت قبل التأمل، وهذه العاطفة الثانية هي نفسها ماثلة في الذهن، وفي

5- محمد مصطفى بدوي: كولوردج، ص 157.
6- عبد المنعم تليمة: مقدمة في نظرية الأدب، التنوير، بيروت،ط 1، 2013، ص 183.

هذه الحال يبدأ النظم متواليا وفي حال مشابهة لها يستمر مريره..." [7]

يشرح هذا القول المراحل الأساسية للقول الشعري، فحسب ووردزورث الشعر هو انسياب عفوي للمشاعر الإنسانية القوية، يستمد وجوده من العاطفة التي هي موطن الإبداع، حيث يتأمل الشاعر في عاطفته ثم يحاول خلق عاطفة شعرية عبر نظم متوال.

7- ينظر شكري عزيز ماضي: في نظرية الأدب، ص 218.